

بِسْمُ قَوْنِيَةِ الصَّحْرَاءِ

للأستاذ عبدالحق فاضل

لم يعرفه فقال له : يا كلب ! فاجابه المعري : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! وبهذا الجواب عرف نفسه بأنه من العلماء ، وردّ الشتم على الرجل ، وشتينا جبيما .. فمن منا يعرف للكلب ولو سبعة أسماء ؟

وأسوأ من تعدد الالفاظ للمعنى الواحد تعدد المعاني للفظ الواحد — مما سبب الخلاف في فهم الكثير من النصوص الجاهلية والاسلامية . ثم هناك عدم اطراد المعاني في استعمالات الكثير من صيغ التفاعل والتفعيل والتثقل والاستعمال ونحوها ، بالرغم من اطراد تصريفها .

وأدهى من ذلك عدم اطراد تصريف الالفاظ الثلاثية نفسها وهي العمود الفقري للغة — ما يتطلب تعلم تصريف كل فعل على حدة ، ماضيه ومضارعه ومصدره ، بل مصادرته في الكثير من الاحوال .. منها مثلاً : كتب يكتب (كَتَبًا وكتَابًا وكتِبة — بالكسر — وكتابة) ، وثار يثور (ثَوْرًا وثورًا وثورانا) .

هذا الى كثرة الشواذ والمستثنيات في كل قاعدة تقريباً .

حتى الفاعل يدل على المفعول أحياناً . الا تصدق ؟ الجسد الكاسي (يعنى المكسو) والائف الراغم (يعنى المرغوم) !

سئلت ذات مرة أن اكتب عن اللفظة العربية (غناها وخصائصها) .

غناها يعنى واحدة من خصائصها — وخصائصها تمنى مزاياها وعيوبها .

عيوب العربية

غير قليلة ، لا تحصى كثرة . منها صعوبة تعلمها بسبب كثرة مفرداتها . ومتراصفاتها ، على المتعلم ، وقد روى أحمد بن فارس عن الثعالبي أن حمزة الاصهاني قد جمع من أسماء الدواهي ما يزيد على اربعمئة ! ومع انه اورد ذلك في معرض المباحة بغزارة معين العربية ووفرة مفرداتها لم يسمع الا أن يكمل الرواية بقوله : « وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي » !

وجمع بعضهم للاسد خمسمئة اسم وللحبة مئتين ! ..

وقد سأل الرشيد الاصمعي « عن شعر لابن حزام المكي ، ففسره ، فقال : يا أصمعي ، إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا أمير المؤمنين ، الا اكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً ؟ » . كذلك رووا عن أبي العلاء المعري أن احد السفهاء

حتى المؤنث يدل على المذكر أحيانا ، مثل نَسَابَة
(بالتشديد ، اى نَسَاب) وراوية (اى راو) .. ومثل
حيزة وطلحة وعنبسة : أسماء رجال !

حتى المذكر يستعمل للمؤنثة أحيانا ، مثل : ظئر
ومرضع وحامل .. ومثل حَذَام ونَعَم وزينب : أسماء
نساء .

وهناك ما يطلق على الذكر والانثى كالخادم
والفمیل كالجريح والفعول كالصبور .. والطفل
يعنى الذكر والانثى والمفرد والجمع !

ومن المفرد الذى يدل على الجمع عدا ذلك :
الركب والسفر والسكن (كلها زنة النصر) اى الركاب
والمسافرون والسكان .

ثم لديك المفرد الذى لا جمع له من لفظه والجمع
الذى لا مفرد له من لفظه ..

أما جموع التكسير فأى شىء نقول عنها ؟ السيف
جمعوه على : سيوف واسياف وأسيف (كأروس)
ومَسْبِغَة (كجزرة) .. والاسد جمعوه على : أسد
(ككُتَب) وأسد (ككُتْر) وأسود (كرؤوس) وآساد
وأسد (بضم السين) وأسدان (كجُرذَان) ومأسدة ..
والشيخ على : شيوخ (بالضم) وشيوخ (بالكسر)
وأشياخ ، وثيخة (كصيفة) وثيخة (كديكة)
وشيخان (كحيتان) ومَشْيُوخَاء (بالفتح) ومشيخ
ومَشْيِخَة (كمدينة) ومَشْيِخَة (كهزلة) .

والاسماء التى لا تملك مثل هذه الثروة الطائلة
من تعدد الجموع لا يمكن التوصل الى معرفة جموعها
مهما قل عددها ، عن طريق القياس ، فلا بد من تعلم
كل واحد منها بالسمع . أما حالات جمع الجمع
فنعميك من سردها وحسبنا وحسبك منها قولهم :
« ليس فى كلامهم جمع جمع ست مرات الا الجمل
فاتهم جمعوه : اجملا ، ثم لجمالا ، ثم جاملا ، ثم
جمالا ، ثم جمالة ، ثم جمالات . قال تعالى : « جَمَالَةٌ
سُفْرٌ » فجمالات جمع جمع جمع الجمع ! *
.. ثم يأتيك العدد والمعدود فيبطشان ما شاء لهما

البطش بقواعد اللغة افرادا وجمعا ، وجرا على
الاضافة آنا ونسبا على التمييز اوانا ، وتغيير حركة
آخر المعدود حسب موقعه من الاعراب طورا وبناءه

على النصب لغير سبب مفهوم طورا آخر ، وتائيدا
مع مذكر وتذكيرا مع مؤنث فى حالات دون حالات .

وما نكرنا من مشاكل هذه العربية وتمتعاداتها
غير القليل جدا من الكثير جدا ، وما على من يريد
أن يفهم الحال على شىء من حقيقتها الا أن يتورط
فى قراءة أى شىء من تلك المؤلفات العديدة الموسعة
فى قواعد اللغة صرفا ونحوها وتخريجا .

فمن جراء هذا كثرت المشاحنات والخصومات بين
جهاذة العلماء أنفسهم فى العبارة ما معناها ، واللفظة
ما معناها أو ما موقعها من الاعراب — يجهل (بالتشديد)
بعضهم بعضا ويسببه ويشنع عليه .

انى لأشعر بالعطف على كل اجنبى يتعلم هذه
اللغة ، بل انى لياخذنى العجب من نفسى أحيانا كيف
تعلمت بعض قواعد المعقدة كحالات العدد والمعدود،
والتمييز بين طائفتي (بَقِيَّ بِيَقَى بَقُوا تَبَقُونَ ..
وَمَتَى يَمِشِي مَشُوا يَمِشُونَ) اللتين لم يعد يفترق
بينهما الا الاتلون .. المنتطسون .

وما لنا نرثى للجانب ، وها هم تلاميذنا اولادنا
المساكين يعاتون من تعلمها رهقا ما بعده رهنق ،
ويرسب بعضهم العام أو العامين فى نصله من أجلها ؟
حتى غدت عند الاكثريين منهم أشق مواد الدراسة
والمنها .

ما اتول كل هذا — ويمكن أن يقال اكثر منه —
لاندد بلغنى التى اتمشقتها ولا اعدل بها لغة فى التاريخ
— ولا فى الجغرافيا — لكن هذه المصاعب فى تعلمها
فى هذا العصر الذى تتعدد فيه مواد الدرس ، والكثير
منها علمى تطبيقى مما يفتقر اليه كل بلد متحضر أو
سائر فى سياق التحضر — هذه المصاعب اللغوية —
بل المصائب اللغوية — قد أضعفت تعلم العربية
فزادت اغلاط الكتاب والمترجمين الى درجة خطيرة
حقا وركت اساليبهم حتى أصبحت الاخطاء والركبة
ترائنا للجيل الجديد وأصبحت اللغة تزداد ضعفا
وانحلالا يوما بعد يوم .

هذه المشاق والتعقيدات لم يكن يحس بها
العربى الجاهلى لانه يرضع اللغة مع الحليب ونادرا
ما كان يلحن . والعربى الاسلامى كان يرضعها مع
الحليب أيضا لان لغة الكلام كانت ما تزال الفصحى ،

وكان يدرسها في نفس الوقت ويجد في درسها متعة ومباهاة . أما اليوم وقد تغيرت الظروف هذا التغير الهائل فقد أصبح تعلم اللغة على الأسلوب القديم من المستحيلات — الا على ذوى الاختصاص . حتى ذوو الاختصاص وحتى حملة شهادة الدكتوراة المتخصصون باللغة يرتكبون أحيانا من الأخطاء ما ليس مقبولا لو صدر عن تلاميذهم .

وما زالت الأخطاء المشتركة تتزايد والعارفون باللغة يتناقصون . وسوف ينفرد عقد العربية في بضعة أجيال حتى تغدو لغة عامية مشتركة بين الأقطار العربية ، بلا حركات اعراب ولا ضوابط .. وتنضم الصلة بيننا وبين تراننا المؤئل الباهر ذاك ، في ميمة نهضتنا ونشوتها .

رَبِّ يَسْر

ولو كان تعدد القواعد وتنوعها وكثرة الشواذ مما يعد ثروة لغوية مثل تعدد المترادفات اذن لكانت العربية اثرى اللغات بقواعد النحو والصرف ايضا ، وهى فعلا اغناها بكتبها النحوية واللغوية وتخريجاتها وتاويلاتها ترهق الدارسين ولا تضيف الى العلم والمعرفة بشؤون الكون واسرار الحياة ، فتبلا .

عندما تسلم النحاة هذه اللغة درسوها ومحصوها واخذوا بما اتفقت عليه اكثرية القبائل ، ونفوا ما انفردت به قبيلة او قبائل مما يخالف الاغلبية . نبذوا مثلا لغة « نحن الذون صبّحو الصباحا » واخذوا باللغة الأروج وهى لغة (الذين) مع ان الاولى اصح في حالة الرفع ، ونفوا رفع اسم (إن) في لغة « إن هذان لساحران » ، ولغة (استمّرنا) بمعنى (استمررنا) ، وابطلوا عمل (ما) الحجازية .. والغوا نطق بعض الحروف في بعض اللهجات لندرتها ولاتحصارها في عدد محدود من العرب مثل : الكشكشة والنشنة والتضجج والاستنطاء وما الى ذلك * .. بصرف النظر عما اذا كانت حسنة او سيئة .

وبالرغم من كل ما حذفوا مما لا يكاد يحصى كثرة ، وجدوا مستثنيات كثيرة تشذ عن القواعد العامة — لكنها مستثنيات مشتركة بين كثير من القبائل فلم يحذفوها بل تعدوها وفرضوها علينا . حذفوا الكثير وبقي الاكثر ،

وما علينا نحن اليوم إلا أن نحذو حذوهم ونكمل ما بدأوا فنلغى الباقى من المستثنيات الزاخرة مراعاة لظروف عصرنا وابقاء على كيان اللغة الذى يوشك أن ينهار ، واللغة على كل حالة ااداتنا ولسنا ااداتها .

وتقييس اللغة ليس من اختراعنا فقد كثر القائلون به والداعون اليه ، من الاحداث ومن الاتدمين الذين قال بعضهم مثلا ان كل أسماء الجمادات يجوز فيها التذكير والتأنيث ، واقترح بعضهم تقييس الأعمال الثلاثية وتوحيد ابوابها الستة في باب واحد كفتح يفتح مثلا . والذى نقترحه نحن بدلا من ذلك تصنيفها بحسب معانيها للاستفادة منها اولا والتخلص من فوضاها . الراهقة ثانيا .. بالاضافة الى ضرورة تقييس مصادرها بدلا من تركها من غير ضابط ، على السماع . والسماع على كل حال لم ينتقل اليها من اللغة الا الجزء الاقل .

حتى لو لم يكن القدامى قد قالوا من ذلك شيئا نواجهنا نحن اليوم تجاه لغتنا وتجاه انفسنا أن نقوله ونقول معه كل ما نراه صوابا .

ولا مفر من التنازل عن بعض الاجزاء ، والا خسرنا الكل خسرانا مبينا . وان مع العسر يسرا .

ومتى تم لنا اصلاح لغتنا العظيمة وسهلنا تعلمها تمت لنا مزاياها وساغ تعلمها على ابنائها وعلى الاجانب الذين سيقبلون عليها ايما اقبال ولا شك ، وخاصة يوم يأخذ اهلها العرب مكاتهم الدولى والحضارى في الطليعة مع الشعوب التى تقود الرقى البشرى علما وتتنا وانسانية وسلاما .. فتكون لغتهم بالاضافة الى مزاياها الاخرى ، التى سنتحدث عنها وشيكا ، اكمل اللغات بحق واوفناها بحاجات العصر . بل ان بعض الشعوب المسلمة سوف تتبناها بدلا من لغاتها الحاضرة ولا سيما اذا كانت لغاتها هذه ليست بالقومية الاصلية . وفى باكستان مثلا حركة كبيرة تدعو الى تبنى العربية فيحتج عليها المعارضون بصعوبتها . والكثيرون من طلاب اللغات في الجامعات العالمية يودون تعلم العربية ذات المجد والتاريخ قديما وذات الاهمية السياسية والاقتصادية حاضرا ، لكن ما يسمعونه عن هذه الصعوبة الشاذة يصرف الاكثريين منهم الى تعلم لغات اخرى .

لا ندرى بعد كل هذا — ايها العزيز القارىء — ما رايك في اى الابوين اشد حبا لولده المريض .. ذاك

* للمزيد يراجع : احمد تيمور باشا — كراس « لهجات العرب » .

رابعا : عند تأثيلهم الالفاظ الاوربية يعيدونها — كالذى قلنا مرارا — الى بعض اللغات الآرية القديمة على الاغلب ويقفون عند ذلك الحد ، لكن العربية ذات الثروة القارونية أوحث لنا ذات يوم عند تأثيلنا لبعض الفاظها ان نرجعها الى بداياتها الاولى التى حاكى بها الانسان الاول بعض الاصوات ثم تطورت على مر الاجيال حتى تكونت منها الفاظ جديدة فى المعنى والمبنى ، مثل تسمية الفروج (صوصي) فى بعض الدارجات من صوته ، والمواء من قول الهرة (ميو) ، والهواء من صوته (هووو) ، وما الى ذلك . فهذا الاثر البدئى الصوتى الذى سميناه (الرّس) الذى يعنى معجميا : بداية الشيء ، ادى بنا الى وضع ما سميناه (علم الترسيس) اى البحث عن ارساس الالفاظ ، لا للغة العربية وحدها بل كذلك للآريات والحاميات والساميات اللواتى قلنا انهن بناتها ، لان الكثير من الفاظهن ما زال يمكن ارجاعه اثلا الى اللغة الام . وهذا اظهر لنا ان اللغة العربية قادرة بمفردها ان تبرهن على صحة (علم نشأة اللغة) وتكشف عن اسرار تكونها ونضجها وطرانقتها التطورية المعجبية .

خامسا : ومن افضل العربية ومزاياها ان فيها الفاظا كثير عديدها عريقة النسب جد قديمة فى الوجود ، منذ عهود ما قبل التاريخ اى قبل عهود اختراع الكتابة ، تدل على معان واحداث باد اهلوها ولم يبق من الآثار التنقيبية ما يدل عليها ، ومن مقارنة تلك الالفاظ بعضها ببعض ومراقبة سيرها التطورى من زمان الى زمان وانتقالها على الخريطة من مكان الى مكان على الاغلب ، يمكن استخلاص حقائق تاريخية مجهولة لولا سجل اللغة — المفوى — هذا لبقيت الى الابد مجهولة .

منشا العيوب والمزايا

هذه المزايا وتلك العيوب .. ما منشؤها ؟

لندعش القارىء العزيز نقول ان منشأها واحد . فاللغة العربية بحسناتها وسيئاتها ليست الا حصيلة رحلتها الطويلة فى التاريخ وترحلها المنقلب الدائب فى حيز محدود من الجغرافيا — المعربة .

كنت قرأت بحثا للمؤرخ العالمى المشهور (توينبى) عن تحول الجزيرة العربية الى هذه الصحراء الرملية بعد ان كانت فى العهد الجليدى غابة لغاء تزخر بالحياة

الذى يسلمه ليد الجراح يفحصه ويكشف علته او علته ثم يجرى له الجراحة تسيل دمه وتبضع لحمه لتشفيه مما يعانى فيتمتع بالحياة ناشطة منتجة ، ام ذلك الاب الذى يخشى عليه الالم فيحوطه بالحنان التقليدى المتهيب الجزوع ويتركه خاملا يذوى ويذوى الى ان يفارق الحياة . نأتى الى المزايا ..

مزايا العربية

ولئن كانت كل اللغات تشارك عربيتنا فى الكثير من عيوبها فان لها لمزايا تنفرد بها دون لغات اهل الارض منذ ظهرت اللغات ونطق ابن آدم .

من هذه المزايا اولا هذه الكثرة الكثيرة فى المترادفات والصيغ والاشتقاقات — مما ذكرناه فى عداد العيوب بالنسبة الى المتعلمين ، فهى نعمة للادباء المترسبين الحذاق هذه المرة .. مع وفرة طائفة فى التعمير الحضارية والفكرية والشعورية ، الى جانب الالفاظ الصحراوية البدائية . فمع ان المعجم العربى (معجم بدوي) لان رواة اللغة لم يأخذوا عن الحضر ولا عن القبائل المجاورة للحضر او الاعاجم ، بل اقتصرنا على البدو الخالص الاتحاح .. لشد ما يدهشنا ما نراه من غزارة المادة الحضارية والفكرية الراقية فيه .

هذه الثروة الفاحشة ساعدت العرب منذ القدم على قرض الشعر والتصرف وتنويع طرائق التعبير فيه ، ونظم المطولات من القافية الواحدة يبلغ عديد بيوتها المئة والمنتين — ما لا نظير له فى اية لغة اخرى .

ثانيا : تبين لنا فى ابحاث سابقة ان اصل الآريين قد كان من الجزيرة العربية ، ومن ثم فان اللغات الآرية شرقية كانت كالفارسية والسفسكرتية واليشتونية (الامفانية) ، ام غربية كالاغريقية واللاتينية والكتية والغالية ووارثاتها الاوربيات الحديثات — هذه اللغات كلها مع اللغات الحامية والسامية : بنات العربية .

ثالثا : ومن مزاياها الخطيرة غير المنظورة انها اصيلة ، او باصطلاحنا اثيلة ، لانها من صنيع اهلها ، نبتت ونشأت واكتملت فى موطنها ، على السنتهم .. خلافا لمعظم اللغات الاخرى ، حية او ميتة ، قديمة او حديثة .. لانها كلها لم تنبت فى الارض التى يتكلم بها اهلها ولا هم الذين صنعوها او نشؤوها وربّوها ، هذه الخملة الفذة انجبت المزيين التاليين .

والمياه . موجزه : أن سكان المنطقة حين صوّحت بهم الغابة الفيحاء وتناصت خيراتها كانوا ثلاث طوائف ، نطائفة هاجرت الى مناطق خصيبة أخرى فنجت ، وطائفة كيفت نفسها مع البيئة الجديدة فعاشت ، وثالثة لم تهجر ولم تستطع أن تتكيف مع البيئة فبادت . ولم يتحدث (توينبى) عن النتائج اللغوية التي قد تكون نجمت من هجرة النازحين وتكيف الباتين . وليس لنا أن نعاتبه فهو مؤرخ لا لغوى ، وإنما نحن المطالبون بأن نبحت ونسائل .

في وسعنا أن نقول بسهولة أن تلك الهجرات نقلت لغة القوم ولهجاتهم الى المناطق التي هاجروا اليها . . الى إيران فالانغان فالهند شبرقا ، والى الهلال الخصيب فالاناضول فأوربا شمالا ، والى الحبشة ومصر فالشمال الإفريقي الى أقصاه غربا . يتأيد هذا لنا إذا تتبعنا الكثير من الالفاظ المتشابهة بين العربية ولغات هذه الاصقاع ولا سيما في الضمائر وأسماء الاشارة والالفاظ الطبيعية البدائية — كما سبق أن قلنا في أبحاث سابقة . والأوروبيون يسمون لغاتهم (اللغات الهندية / الأوربية) لانهم وجدوا شبيها بين الفاظ لغاتهم والفاظ السنسكريتية (اللغة الهندية القديمة) ، وإذا كان ذلك ينبىء أن الأوروبيين قد قدموا أصلا من الهند فان استنتاجنا ينبىء أن الكثيرين منهم قدموا من الأرض العربية رأسا أيضا . وأية كانت الحال فان من البديهي أن بوسعنا أن نسمى تلك اللغات على وجه الاجمال باللغات (العربية / الهندية / الأوربية) .

فمن أجل هذا قلنا في مطلع الحديث أن اللغة العربية أم اللغات الآرية بالإضافة الى الحامية (لغات الشمال الإفريقي والصومال) والسامية (لغات الهلال الخصيب ومصر والحبشة) ، وأن العربية ليست قادرة على ترسيخ الالفاظ لنفسها فقط بل لبناتها من هاته اللغات أيضا .

ان حياة الترحل والنُجعة في تلك البيداء العربية قسمت القوم بطونا وقبائل كما قسمتهم مواطن الخصب المستديم الى قرى ومدائن . وتنتقل تلك البطون والقبائل على غير نظام — وأحيانا على نظام — من منطقة في موسم الى أخرى في موسم آخر . . فتتقارب طورا وتتباعد طورا ، ويندمج بعضها في بعض آونة وينشطر بعضها من بعض أوانا . . وكثيرا ما تضطر الظروف عائلة من القبيلة الى الاتسلاخ من مجموعتها . . او

فردا يلتجىء الى عشيرة أخرى فيتزوج وينجل فيهم . وفي جميع الحالات يأخذ الافراد والجماعات لغتهم معهم حيثما ذهبوا . وإذا بحياة العزلة تطور اللغة على السنة فئدة في اتجاه غير الذى تتطور فيه على السنة فئدة أخرى . فما كانوا يطلقونه على الأرض الصلبة البيضاء هنا يطلقه بعضهم هناك على الأرض البيضاء ولو كانت رخوة ، وما كان يطلق على التل الصغير صار بعض المنشقين يطلقه على الجبل الذى يجذونه في أرض نجعتهم مثلا . وقد سبق ان استشهدنا على مثل هذه التطورات بالكثير من النماذج ، نذكر منها هنا (الأبرق) الذى اصل معناه بياض يلمع في لون آخر كالبرص ، فصار يعنى معجيبا كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض ، ثم صار يعنى الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين . . ثم نطقه قوم (الأبلق) بنفس معناه الاول أى : الأسود والابيض . وهو ينطق (بَلَق) بسكون اوله في الدارجة المغربية ويعنون به : الشديد بياض البشرة . وهكذا اختص بلون واحد وفقد الآخر . لكن نفس الصيغة أى (black) تعنى بالانكليزية اللون الآخر فقط أى الأسود . وهى تنطق blanc بالفرنسية و بالاسبانية blanco و بالاطالية لكن بالمعنى المغربى أى الابيض .

واسم الحيوان سار يعنى حيوانا آخر أو أكثر من حيوان مثل السَّمة (كالهمة) وهو من أسماء الاسد اطلق على الذكر من الحيات وانثى القنفذ .

ويتغير النطق كذلك اذا كان أحد الابوين التغ أو أرتل فيؤثر في اولاده . والاعلم أن الكبار يقلدون رؤساءهم في النطق ولا سيما شيوخ العشائر .

.. فيكون اختلاف اللفظ في جميع هذه الحالات وغيرها — وهى كثيرة — منشأ الفاظ جديدة متقاربة في المبنى والمعنى ، وهو ما اثار تعجب قدامى اللغويين واعجابهم مذ عثوه من بدائع العربية وسموه تصاتب المعانى بتصاتب الالفاظ . من النماذج الكثيرة : سل ، سلت ، أصلت . . هواء ، هباء ، هباب ، هب ، قص ، تصم ، قسم . . .

وقد تتباعد الفاظ بتصاتبة فلا يبقى بينها شبه ظاهر ، مثل فعَلَى : قَطَّ وهَدَّ ، فقد تطورت (قط) هكذا : قَطَّ — قَدَّ — قَدَّ — حَدَّ — حَدَّ — هَدَّ . .

وان كان المعنى قد ظل هنا ضمن نطاق (القطع) فانه قد يتغير مع تغير اللفظ في بعض مناحى التطور

وخارجها — خلق هذه اللغة الفخمة السمينية ،
والعلاقة بين اللغات .

ولو كانت البداوة انقضت قبل جمع اللغة لضاع
علينا الكثير من الالفاظ البدائية التي ما زالت فيها آثار
منشئها الصوتي ينم عليها ، وقد جرى ذلك فعلا للغات
التي غادرت المعربة وابتعدت ولو قليلا عن فلواتها
كالمساميات اللائى فقدن من ذلك الشيء الكثير ،
والحاميات اللائى كنّ أبعد في المكان واتدم في الزمان
فكان ما فقدنه أكبر مما فقدت الساميات ، ثم الأريات
اللائى انتقطعت صلتهم بالأرض الام وأهلها — حتى
ما كان منهم قريب المكان كالفارسية — فكان ما فقدنه
أكثر وأكثر .

فهكذا تكونت مزايا اللغة العربية وعيوبها —
بدا بيد .

البدائية والرقسى

يقول فقهاء علم اللغة المحدثون من الفرنجة ان
اللغات البدائية هي التي تكثر فيها الالفاظ القريبة من
بداياتها الصوتية ، على حين أن اللغات الراقية لا يوجد
فيها من ذلك الا القليل الاقل . وكثيرا ما نسمع حتى من
بعض اللغويين العرب من يستنتج من ذلك أن المعربة
لغة بدائية من ثم .

الفكرة من أساسها مغلوطة ، تعميم . وجدوا هذا
في لغات بدائية وهذا في لغات راقية ، فقالوا ذاك علة
ذلك . وجعلوها قاعدة . المظهر شيء والسبب شيء
آخر ، ان كلام رجل ملتج بالانكليزية وكلام رجل حليق
اللحية بالفرنسية لا يعنى أن اختلاف حالة اللحية هو
سبب اختلاف اللغة . فلنبحث عن سبب معقول لوجود
الجذور الصوتية في اللغات وغيابها ، غير الرقى
والبدائية .

اللغات البدائية بقيت بدائية مبقية الفاظها قريبة
من ارساسها الصوتية لان أهلها لم يختلطوا بغيرهم ،
لا لانهم لم يرتقوا . اما الشعوب المتحضرة — الأوربية
مثلا — فقد جاءت من مناطق أخرى ولغاتها خليط من
لغات شتى . . ابتعدت عن منشئها وأهلها ، ومقدت
جذورها الصوتية لا عند ما ارتقى أهلها ولكن منذ
كانوا همجا متوحشين ، في أوربا نفسها ، بل قبل أن
ياتوا الى أوربا أيضا .

مثل : حدّ — حسّ — حشّ — عشّ ، عاش ، ميش :
(حياة أو خبز) . . أو هكذا : حشّ — حشا ، حشية ،
ومنها حشية الثوب ، ثم حاشيته ، ثم حاشية الكتاب .
وما أبعد كل هذا عن الرس (قط) في اللفظ والمعنى .
ومن امثلة اختلاف النطق ما زال القاف يلفظ في
دارجاتنا على أربعة أوجه ما بين بدو وحضر في مثل :
تاعد ، كاعد ، جاعد ، أعد .

فاذا كان هذا شأن الكلمة من ريش واحد فما
بالنا بالكلمات الكثيرة المنحدرة أساسا عن ارساس شتى؟
أظننا فهمنا من كل ما تقدم كيف تعددت الفاظ
المعنى الواحد وكيف تنوعت معانى اللفظة الواحدة مما
اغنى اللغة — ومن ثم كيف تباينت واضطربت طرائق
التعبير واختلفت قواعد النحو والصرف .

فاذا تلاقى بعض اولئك الضاريين في أماكن تلك
الجزيرة العربية الفسيحة الأرجاء ، فاندمجت قبيلة في
قبيلة . . اندمجت اللغتان . . لا كما هي الحال في الحضر
حيث يقيم كل فريق في حى من البلدة الواحدة فيظنون
متجاورين محافظين على لغتهم ولهجتهم . . فان القبيلة
في البداية كلها حى واحد ، يلعب صغارها معا دون تمييز
بين طبقات ، ويحضر كبارها كلهم في مجلس الشيخ
على سواء ، ويضربون خيامهم معا عند النزول
ويقضونها معا عند الرحيل . فما هو الا جيل أو جيلان
حتى تندمج اللغتان فتكثر الالفاظ للمعنى الواحد وتعدّد
المعنى للفظ الواحد .

فلو أن القبائل العربية قد اجتمعت كلها في صعيد
الى غير افتراق لتوحدت لغاتها في لغة واحدة ، ولو
قد افتترقت كلها عن بعضها بعضا الى غير لقاء لتعددت
لغاتها وتباينت حتى لا يعود بعضها يفهم عن بعض
ولاصبحت لهجات كل من القبائل المنفصلة لغات محلية
ضيقه الأبعاد بالنسبة الى اللغة الام ، كالذى وقع
فعلا للبابليين والكمانيين وغيرهم من الساميين — والى
حد ما للحميريين (أهل اليمن) .

لكن تكرر الافتراق والانشطار الذى ينبجج الالفاظ
الجديدة والمعانى الاصنامية أو المختلفة ثم تكرر اللقاء
الذى يجمع كل الحاصل الجديد في بوتقة واحدة ، ثم
اتصال البداوة من جهة أخرى لضرورة التبادل المستمر
مع المعربة المتحضرة على جوانب المعربة — في داخلها

لقد قلنا توا ان الساميات فقدت الكثير من ارساسها واثولها لاتسلاخها عن المجموعة العربية ، مع ان مواطنها بقيت قريبة من الوطن الام .

ولا اذل على فساد نظريتهم من ان اللغة العربية تد جمعت بين الخصلتين ، بذوها تنطبق عليهم القاعدة الاولى (عن البدائيين) وحضرها لا تنطبق عليهم حالة الاوربيين المتحضرين مثلا لان العرب بدوهم وحضرهم لم يغادروا معريتهم ولم يبتعدوا عن موطن آباؤهم الاوائل الذين خلقوا لغتهم لانفسهم بانفسهم ، ومن جهة اخرى ، كم من لغة ما تزال همجية بدائية في بعض القارات ، قد فقدت جذورها الصوتية لا يتمادها عن موطنها الاول واختلاطها بلغات بدائية اخرى .

ويمكننا ان نضعها قاعدة عامة فنقول : « ان السبب في ضياع الجذور الصوتية من اللغات ليس التحضر والترقى ، بل الهجرات والمخالطات » .

ان الذى ذكرنا آتفا من كثرة التطورات اللغوية التى حققتها كل تبيلة على حدة ثم اجتماعها لتبادل ما جد لدى كل منها من الفاظ ومعان تنضاف الى رصيد اللغة المشتركة - لامر يشبه أسرة يخرج افرادها للكسب ثم يعود كل منهم بحصيلة كده ليضيفه الى ثروة الاسرة . حتى بلغت ثروة اللغة ذلك الحد التضخمى المشهور .

وان شكا بعضهم قليلا من تكاثر مفردات المعنى الواحد فان الامر الذى طالما شكوا منه كثيرا هو تعدد المعانى للفظ الواحد . وغريب ان يصدر مثل هذا التشكى عن مثقفين من العرب الذين يتقنون لغة او اكثر من لغات الاقطار الراقية الرائدة في مجالات العلم والمخترعات . انهم يلاحظوا ان ذلك شأن اللغات الاجنبية ايضا ؟ اذ فتحوها اي معجم بالانكليزية او الفرنسية ، وهما لغتان حديثتان وطفلتان بالقياس الى العربية الناضجة المكتملة القديمة ، تجدوا العجب من فوضى اختلاط المعانى وتبايناتها ، حتى في المصطلحات العلمية والتقنية الحديثة .

لهذا عيب التطور اللغوى لا عيب العرب ولا عربيتهم .

المهجور

كثر الهجوم على الحوشي المهجور في معاجنا العربية والمطالبة باعدائه وتصفية اللغة من غوائله ،

مع انه لم يسبب لنا ضررا ولا هم فكروا انه ارتكب جنائية . ان كانوا لا يريدون ان يستعملوه فمن الذى اجبرهم على ان يستعملوه ؟ وان كانوا لا يريدون منا ان نستعمله فمتى استعملناه ؟ انى لم انهم ماذا يتصدقون . بديهي ان المعجم الموجز الطلابى يخلو من الالفاظ المهجورة وحتى القليلة الاستعمال . وفي كل لغة معاجم جيب صغيرة بحجم الكف او اصغر احيانا تقتصر على الالفاظ الاساسية التى يحتاج اليها المتعلم ووطنيا او اجنيا ، ثم يكبر حجم المعاجم في طبقات مختلفة ، ويكبر حتى يبلغ العدد العديد من المجلدات الضخمة . ولكل من الناس حجمه الذى يناسبه من المعاجم والملابس . فما بالنا لا نرضى ان تكون كذلك الحال في عربيتنا ؟

ثم كيف نفهم تراثنا الجاهلى ، بل حتى الاموى ، بل حتى العباسى ، اذا نحن صفيينا معاجمنا من الالفاظ التى اصبحت اليوم مهجورة وكانت دارجة في لغة الحديث اليومى عند اسلافنا ؟ ان كل لفظة لغوية كائن حى مهما يكن اليوم مغمورا مهمل . فمن الذى يطالبنا بان نندها فعل الجاهلية ؟ كل كلمة لها حكايتها . نطق بها ناس من الاجداد وسجلوا بها شيئا من مشاعرهم او نبذة من حياتهم .

انظر الى كلمة (اعتقد يعتقد اعتادا) . لفظة مهجورة ، نعم . غريبة لا جانبية فيها ولا رشاقة ولا موسيقا ، نعم . لكن لها تاريخها . فاسمع مأساتها :

« العَفَد (بالفتح) - طائر يشبه الحمام ، او هو الحمام . والاعتقاد ان يعلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل احدا حتى يموت جوعا . . قال محمد بن انس : كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا ان يموتوا اغلقوا عليهم بابا وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعا . قال : ولقى رجل جارية تبكى ، فقال لها : ما لك ؟ قالت : نريد ان نعتقد . . » - اللسان .

انهذه كلمة يحل لاحد وادها لمجرد كونها حوشية مهجورة وهى تحمل مثل هذا التاريخ الفاجع ؟ كيف نعرف مآسى تلك الصحراء ودواهبها وحروبها وغرامياتها . . بدون معونة هذه الكلمة وامثالها ؟

اما اطلاق (العفد) على الحمام نسيبه ان من سجية هذا الطائر ان كلا من الذكر والانثى يعتقد اذا نكل صاحبه - فيضرب عن الطعام والشراب حتى يموت .

فبالاضافة الى ما للكلمة من قيمة تاريخية

« الماء الذى يكون تحت الصخر لا تصيبه الشمس » استعمالناه مقابل (ground water) بالانكليزية و (nappe fr atique) بالفرنسية ، وتعريفه الاصطلاحى فى المعجم المذكور : « ماء تجمع تحت سطح التربة فوق اول طبقة كثيفة » .

وكذلك (الخَسَل) - زنة الفسل - الذى معناه اللغوى من « خسلت شيئا : رفلته ونفيتها » استعمالناه مقابل اصطلاح (littering) بالانكليزية و (abandon de detritus) بالفرنسية ، الذى لا نجد له فى عربيتنا الراجحة - غير المهجورة - كلمة تؤدى معناه .

ولا ضرر ان يكون لفظ المصطلح حوشيا غير متداول بل الامضل ان يكون كذلك لكيلا يلتبس معناه الاصطلاحى بمعناه العام . والمصطلحات واجبة التعلم على كل حالة ولن يفهمها غير المتخصص ولو كانت من الالفاظ المأنوسة الجارية يوميا على اللسان . وان شئت برهاننا فاذهب الى اى نجار او حداد او صائغ . . . وسله عن مصطلحاته واسماء ادواته فستجد انك لن تفهم الكثير منها ولو كنت تعرف معانيها اللغوية العامة.

والمعجب كل المعجب ممن يتهمون العربية بالقصور فى مضمار المصطلحات . لقد اتى على العربية حين من الدهر كانت فيه اغنى اللغات طرا بالمصطلحات العلمية من طب وفلك ورياضة ولاهوت وفلسفة وتصوف ولغة . . . وكانت اللغات الاوربية فى عصر نهضتها ، وعلى راسها اللاتينية ، هى التى تشكو عجزها عن مجاراة هذه العربية والترجمة عنها ، فاضطروا الى اقتباس الكثير من المصطلحات العربية كما هى وادخلوها فى لغاتهم مثل اللوغارتم والصفر والجبر والكحول والقلو وحرف (x) الذى كان ينطق شيئا باللاتينية ، مقابل الحرف (ش) العربى الذى اتخذاه العلماء العرب رمزا لكلمة (شئ) بمعنى الشئ المجهول .

فلما نام العرب وخيمت عليهم عصور الجهل والظلام تعدت لغتهم العربية تنتظر قيامهم . وما هم اليوم قد هبوا وما هى قد هبت معهم . وما من لغة عرفنا تاريخ الفكر البشرى اقدر من عربيتنا هذه على سبك المصطلحات الدقيقة الموجزة ، لا المادية فقط بل المعنوية ايضا ، من عقلانية ونفسانية ووجدانية .

بشرائية ، لها قيمتها المعصرية العملية نحن ما زلنا بحاجة اليها لكثرة ما يقع فى زماننا من حوادث الاعتقاد، السياسى وغيره .

والاخبار كثيرة فى كتب اللغة عن عادات القوم ووجوه معاشهم مما لا تجده فى كتاب الا حين تقرا شرح معانى بعض الالفاظ التى اصبحت منكرا مجهولة لدينا ، وحتى لدى العباسيين والامويين ، بل حتى لدى الراشدين الذين سبقوا فاتخذوا من دراسة الشعر الجاهلى ولا سيما الغريب من الفاظه احدى وسائل تفسير القرآن .

هذا الى ان المهجور والحوشى او الوحشى او الابد : ضرورى للدراسات اللغوية ، على الاساليب المعصرية ولا سيما تأثيلا وترسيسا .

ان المهجور لثروة اى ثروة ، لا تراثية تاريخية نخرية وحسب بل عصرية وعملية ايضا . فهى مادة خامة لسبك المصطلحات الحديثة - علاوة على ما تقدم من مناقبها .

معلوم ان الاوربيين-اعتادوا ان يستعمروا الفاظا من الاغريقية واللاتينية ليصوغوا منها مصطلحاتهم الحديثة لكيلا يختلط المصطلح بالفاظ الاستعمال اليومى من لغتهم ، مثل : telegraph (= tele : من بعيد + graph : مكتوب) بدلا من قولهم بالانكليزية (مكتوب من بعيد : written afar) مثلا. وقد كان هذا المصطلح الاغريقى حوشيا وغريبا على الناس اول الامر ، لكنهم تعلموه ودرجوا عليه .

وفى امكاننا استعمال الفاظنا المهجورة كذلك لبعض المصطلحات بدلا من الالفاظ الادبية او الكثيرة الاستعمال . كتموذج اذكر (التوتين) استعمالنا بدل (التوطن) فى ترجمتى لمعجم (صيانة الطبيمة .) مقابل : (immobilization) التى ورد تعريفها فى المعجم : « تثبيت الحيوانات موقتا فى بقعة لفرض الانتناص او الرماية او النقل او التدجين ، الخ » * . والتوتين من « وتن بالمكان : ثبت واقام » - وهكذا يتخيمص (التوتين) بالمعنى الاصطلاحى المذكور ويبقى (التوطن) على معناه العام .

وكذلك (الخَسَل) - زنة الملل - وهو لغويا :

* « اللسان العربى » - العدد 12 - ج 1 - سنة 1975 ، ص 253 .

علميا على صحة (علم نشأة اللغة) من محاكاة الأصوات ، وانها قادرة كذلك على ترسيخ الالفاظ لنفسها ولغيرها من اللغات المتولدة منها ، حتى الأريات .

فلنضرب للقارىء مثلا . قال ابن الخابة الاعربى :
(فرررر) يحاكي صوت رفرمة أجنحة الطائر وتعبيرا عن فراره عند الاقتراب منه . ومن هذا الصوت صيغ فعل (فرّ يفرّ فرارا) . ومنه تولد فعل فرّق (كفرح) أى خاف ، وفرّق (كضرب) بين الشياطين ، فصل بينهما .. وفرّق ، وفرّق ، ثم فرث وفرخ وفرد وفرز وفرش .. الخ ،

ومثالا من ترسيخ الالفاظ الاجنبية نذكر كلمة (perka) الاغريقية التي يعدها اللغويون اثل (الفرخ) بالعربية بسبب تطابق معناها . بينما العكس هو الصحيح ، لاننا نجد في العربية علة التسمية وهى (انفراخ) البيضة أى إنشقاقها ، عن الفرخ ، شبيها بتسمية (الفروج) أيضا لنفس السبب أى (لانفراج) البيضة عنه ، أو لانه يفرجها ويخرج منها . نفس الاغريقية لا يمكن تأثيل perka لانها لا اثل لها فيها ، لكن يمكن تأثيلها وترسيخها في العربية هكذا : perka — فرخة ، فرخ — فرق — فرّ — فرررر ..

ومن فعل (فرّ) نجد في الانكليزية : fear خاف .. و flight : خوف ، فرار ، و free حرّ وأطلق ، و fly : طار ، أو ذبابة (لاتها تطير) . و flea : برغوث (لانه يفرّ) .

وما نكتفى بذكر هذا المثل البسيط ، الا اختصارا .

وهم عند ما يبحثون عن اثل الالفاظ لغاتهم يرجعونها الى مشابهاة لها بلغات اوروبية اخرى قديمة أو حديثة ، لكنهم لا يقولون من اين جاءت فدخلت في تلك اللغات ، في العربية وحدها يجدون الجواب .

يلاحظ قارئنا الكريم ان هذا الترسيس ليس عرضا لتطور لفظ الكلمة في عدة مراحل فقط بل لتطور المعنى في عدة مراحل كذلك . وثمة من النماذج ما هو اطول تسلسلا واكثر تشعبا وتصاعدا في مسارج الارتقاء لا يتسع لها هذا المقام . (وقد تطرقنا في كتابنا « مفامرات لغوية » وغيره من الدراسات الى ترسيخ الكثير من الالفاظ الانكليزية وغيرها ، مثل riviera و

وبالاضافة الى هذا الكنز الذى لا يفنى من نفاثس المفردات مأنوسها ومهجورها، لدينا رصيد عظيم من قابلية للاشتقاق لا مثل لها في اللغات ، وكما لنا شاهدا تلك الذخيرة الهائلة من اوزان الصيغ العربية تربو على (1300) وزن ، يمكننا ان نصنفها ونستخدمها ونستثمرها في (تقييس المعانى مع تقييس الاشتقاق) .. وناهيك به منجما لاستخراج المصطلحات . وان رمت شاهدنا على فضل العربية من اقوال الاجانب — وهى كثيرة — فاليكم منها شهادة العلامة الفرنسى ارنت رينان — وهو ليس صديقا للساميين عامة ولا محبا للاسلام ، لكن عظمة العربية فرضت عليه مع ذلك ان يقول ، في منتصف القرن التاسع عشر :
« من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصَّحِب حلّ سرّه انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة اول الامر واذا بها تبدا فجأة في غاية الكمال ، عظيمة السلاسة ، مفرطة الغنى ، كاملة الى حد انها لم يطرا عليها حتى اليوم اى تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت من اول امرها تامة مستحكمة . ولم يفض على فتح الاندلس اكثر من خمسين عاما حتى اضطر رجال الكنيسة الى ان يترجموا صلواتهم الى العربية ليفهمها النصارى !

ومن اغرب المدهشات ان ثبتت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند امة من الرحل ، تلك اللغة التى قامت اخواتها بوفرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها .. » .

لا نجادله في ثناءه على العربية فالذى نظنه انها مستحقة له ، لكننا نخالفه في حقيقتين علميتين : اولهما ان العربية ان كانت غير معروفة اول الامر كما قال — ويصح هذا بالنسبة الى الاوربيين — فلا يعنى ذلك انها نشأت كاملة وانها لم تكن لها طفولتها البعيدة في اعماق التاريخ . والثانية ان تلك اللغة التى تال انها في غاية الكمال لم تكن من صنع البداوة وحدها في حياتها المترحلة ، بل شاركت في الجانب الحضارى منها مناطق الحضر المستقر على مدى الاجيال . وحسبها عراقة ويقمّ ان من بناتها الساميات : البابلية والفرعونية والكنعانية ، فضلا عما تلاها من ارمية ومندائية وآشورية .

الترسيس

تلنا ان من مزايانا عربيتنا انها تستطيع ان تبرهن

calcium و copper
table و sing
و Caesar و saxon
.. وردناها الى ارساسها العربية)

سقفونية الصحراء

يلاحظ فقهاء اللغة الاوربيون ان اللغات السامية كثيرا ما تعتمد الى المجاز . هذا شأن اللغات كافة في الواقع ، لكن الساميات اكثر جنوحاً الى المجاز ، حتا . ان تشابه وجوه البيداء ورتابة الحياة البدوية جعلت اولئك القوم يلتبسون التنويع والتفنن في أى شيء لا دور سينما ولا مسرحيات ولا مذياع ولا مشواف حرمان من مسرات البيئة وتسليياتها وتنوعاتها ، مع الكثير من عواطف ملتعبة وحب صحراوي محرق وحروب طاحنة لا تكاد تهذا الا لتمود جذعة وخوف من كوارث محتلمة لا عداد لها من محل وجوع وغارات مفاجئة وغير مفاجئة من اعداء من البشر أو السباع أو الانعاسى .. أو الجن ..

تلك النفوس الجياشة اكتشفت تنويعها الذاتى في عالم (الكلمة) . يتصرفون في تشويق صيفها ويتحذقون في تفتيق معانيها متلذذين في الانصاح بها عن وجدانات النفس متلهفين الى الاصفاء اليها حين تصور لهم بالتعبير البارع الفنى عن وجدانات الغير .

ولم يكن ابتداء المترادفات الكثيرة للمعنى الواحد ولا المعانى الكثيرة للكلمة الواحدة كانيا لاشباع جوعهم الى التنويع والتفنن ولا سيما ان ذلك قد جاء عفويا وتطوريا تلقائيا . فمن شوقهم الى الخلق والتمتع بلذة الخلق والامعان في تقوية التعبير — جاء تلمظهم احيانا بالالفاظ علاوة على تلاعبهم بالمعانى عن طريق التشبيه طورا والاستعارة طورا والمجاز والكناية والتلميح والتعريض احيانا .

وكثيرا ما يتقلب التشبيه او المجاز حقيقة . ايسر مثال على ذلك كلمة (الحسام) مثلا . معناه اللغوى هو : القاطع الحاسم ، ولا بد ان اول من اختصر الطريق فلم يشأ ان يقول (السيف الحسام) ،

قد اراد الاكتفاء بكلمة (الحسام) ليترك للسامع ان يحزر ما هو الشيء المقصود . وليس الاختصار هو الغرض وانما وجدوا ان ذكر الصفة وحدها واسقاط موصوفها اوقع في النفس وابلغ في التعبير . ومن باب الاستمتاع باستعمال الصفة كناية عن الموصوف اتبعوا ذلك في تسمية الكثير من الاشياء ولا سيما الخطير منها ، من داهية واسد وحية .

في اللغات الراتية من اوربية وغيرها ايضا يعمدون الى المجاز والاستعارة . لكن من الذى يفعل ذلك منهم ؟ اهل الخيال والبلاغة .. الشعراء والادباء . وانما يدل اكثر العربية منه على ان اهلها شعراء وفنانون ، او على كثرة الشعراء المتفننين فيهم . ومن هنا قيل ان كل عربى شاعر ، ولا بد ان يصدر عنه البيتان او الثلاثة ، ولو مرة في حياته .

وشدة اهتمام العربى بما يسمع من روائع الكلم منتورا ومنظوما في ندوات القوم والتهامه اياه باذنيه وقلبه وقرط لتذاذه به جعل ما يسمع يرسخ في ذهنه ، فتويت بذلك حافظته فكان يعول عليها تعويلنا على اوراتنا ودفاترنا. فلما جاء الاسلام وانتشر التعليم جيلا بعد جيل اخذت الصحف المكتوبة تقوى والذاكرة تضعف تبعا لذلك حتى اخذوا بالتدريج يعتمدون على التدوين الى ان اصبح الاعتماد كله على التدوين ، على العهد العباسى * .

ان تحويل الالفاظ المجازية (الوضعية) الى الفاظ واتعية (عينية) قد كان منجما آخر اغدق علينا نبيضا من الثروة اللغوية .

فمن هذا المنجم اغترف ابو عبد الله بن خالويه الهذانى — الذى قال عنه ابن فارس انه جمع للسيف خمسين اسم وللحية مئتين ، كما ذكر الثعالبي ان حمزة الاصبهاني جمع ما يزيد على اربعمائة اسم للداهية .. وكما ذكر الاصمعي انه يحفظ للحجر — كالذى قلنا آتفا — سبعين اسما .. ومثله قول ابى العلاء المعرى. انه يحفظ للكلب سبعين اسما كذلك ، نكل تلك الاسماء صفات استعملت مجازا بدل الاسماء ثم صارت اسما .

* بسبب عدم تنقيط الكتابة لم يكونوا يكتبون بقراءة الكتاب العلمى وحسبهم ، مخافة التصحيف ، بل يشترطون على العالم قراءته على مؤلفه او على شيخه ، اى استاذ عالم من شيخ آخر .. عن المؤلف ، لكيا ينجو القارىء من غوائل التصحيف واخطاء النسخين . لكن تلك الحافظة الجاهلية الفذة ضمنت على كل حال .

الداهية :

نستعرض بعض اسمائها لنرى طريقتهم في تسميتها هي التي طالما لوعتهم ، تجابهم في صحرائهم أنسى توجهوا وتأخذ عليهم كل سبيل .

من هذه الاسماء ما يهون امرها ، مثل : الملمة (اى الزائرة ، من قولهم الم بهم : نزل بهم واتام) ، والنازلة (تشبه الملة اى من الزيارة والنزول) .

ومنها ما هو اشد من ذلك مثل : الربيق (بالتصغير من الربيق اى الحبل تربط به البهيمة) ، والاربيق (بالتصغير ايضا ، من الارق والغم) .

ومنها ما هو اشد من هذا ايضا كالمصيبة (التي تصيب كالسهم مثلا) ، والنائبة (التي تمضمهم بنايها) ، والجائحة (المهلكة) .. والفاجمة .. والرزية .. والفاجرة (التي تكسر فطار ظهرهم) ، وتلمظوا باسمها هذا كاتما تدليلا فنطقوه كذلك : الفيقر (كالفيلق) .

وسمواها الصم (كالمصل) وهو مستعار من اسماء السيف (الذي يقطع الصميم وهو الفضروف بين الفترتين) . ولا ادل على نزعتهم في اللبس بالالفاظ وتويعها امانا في الانصاح وتشديد وقعه في النفس ، نفس المتكلم والسامع ، من تمطقتهم باسمها هذا — وغيره كما سنرى — مذ نطقوه كذلك : الصماء وصمام (بالبناء على الكسر كطام) .

وبعض اسماء الداهية يراد بها التهويل وارهاب السامع بخشونة لفظها وقوة جرسه بالاضافة الى معناها — كاتما ليخيفوا انفسهم — على عكس ما تفعله السباع اذ تخيف اعداءها بالزئير والزجرجة بالاضافة الى فتك المخلب والنايب . من ذلك : العتقير والخنفتيق ! ويبدو ان هذه الخنفتيق انحدرت من الخنق طفقوا يتلامبون بنقله حتى تخنق . واما المنتقير فائلها (العناق) — بالفتح — وهو احد اسماء الداهية ايضا ، ثم سموها (العنتاء) — وهى غير الطائر الوهمى المشهور — ثم (العنتز) — بالزاي المنقوطة ، زنة الجنل . ولم يشف غليلهم كل ذلك الى ان جاء يوم فنطقوها المنتقير ، واستراحوا .

واحيانا يمدون الى السخرية كقولهم كناية عن

الوتوع في داهية : « وتمعوا في قرنى حمار ، او في است كلب » او في غير ذلكم .

وقد يكون اسمها بعيدا عن التدليل والاستهانة والسخرية ليفصح عن حقيقة شعورهم تجاهها ، مثل : الكريهة .

ولو نحن جمعنا اسماءها في وزن وقافية لالفنا من سمفونية الصحراء ما يمكن تسميته (نشيد البول) .

فيما يلي مثال من تلكم الاسماء المرعبة ، مما ذكرنا آنفا وما لم نذكر :

حاطبة جائحة ضراء
لممة نازلة صماء
صم صمام نكبة وبلوى
ويلوة بليبة بلاء
داهية فاقرة وفتقر
مصيبة نائبة باساء
تد وتمعوا في دربيس باتمه
وفي است كلب واريق فاجمة
وقمطيرير عنتقير واقمة
وخنفتيق ام هول قارعه !

السيف :

معظم اسمائه من معنى القطع ، مثل الصارم والجراز والقرضاب والمطبق (كالمؤن : الذي يصيب طبق المعظم) والبتار ، ثم السيف (من السائف اى القاطع ايضا ، مثل مياغة الطيف من الطائف والغيب من الغائب والغيث من الغائث والليث من اللائث) ، اى ان (السيف) ايضا صفة وليس اسما جامدا كما توهم اللغويون منذ القدم .

« قيل ان ابن خالويه زعم انه يحفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم ابو على الفارسي وقال : ما احفظ له الا اسما واحدا وهو السيف ! قال ابن خالويه : فايين المهتد والصارم وكذا وكذا ! قال ابو على : هذه صفات » .

لكن بحثنا التائلي اظهر لنا ان (السيف) ايضا من الصفات ، كالذى اشرنا اليه * .

بالاضافة الى معنى القطع وردت للسيف اسماء هي مجرد نعت موضوعي لا يهتدف مدحا ولا ذما ، مثل

* تمصيل ذلك ورد في حديثنا « دخيل ام اثيل » — اللسان العربي ، الممدد 12 — 1975 ، ج 1 — ص 18 .

الإسـد :

وما أدراك ما الأسد ، كان شيئاً مخوفاً في تلك الأيام ، لم يكن لديهم رشاشات ولا بنادق ليصيده من بعيد . هو الذي يصيدهم من قريب . وسهامهم لا تصيبه من مسافة مأمونة ، وان أصابته لم تصب منه مقتلاً الا في النادر ، لهذا لم يكن يجرؤ على مهاجمته ولا على مدافعة هجومه الا راح أو سياتف . . . وتليل ذلك البطل .

لذلك خصّوه ببعض أسماء الداهية والسيف — علاوة على أسمائه الرهيبة — مثل الصّم (كالسر) والصمصام (كالثرثار ، وكلاهما من أسماء السيف) والصيّمة (كالهمة من أسماء الداهية والسيف) . وتلمظا باسمه أضانوا الصمصم (كالمسسم) .

طبيعى اذن انهم عدوه بلاءاً اذا اعتاد قطع الطريق على المسافرين او اقتحام المضارب والخيام ليلا على المقيمين . ومن ذلك قول المتنبي في وصفه :
نزلت على الاردن منه (بليّة) . واحسبهم قد سموه في قديم زماهم (بَلَوَى) وهى كالبلية من أسماء الداهية .
فليبي على ذلك ان (belua) تطلق باللاتينية على الحيوان الضخم من اسد وفيل وحوت . ولا نستغرب اطلاق اسم الاسد على أكثر من حيوان هنا فان ذلك شائع في العربية ، ونذكر من أسماء الاسد بالذات : الصيّمة : الاسد والذكر من الحيات وانثى العنقذ — كما تلتنا قبيل — واليسيد (كالعيد) : الاسد والذئب . . والليث : الاسد وضرب من العناكب ا

من أسمائه أيضا ما هو مستوحى من لونه ، منها : الورد (من لون «الأرض» بدليل انها تسمى بالالمانية (erd) (*) ، واليعسر (كالمطر) واليعفر (كالسجل) من العقر (كالتمس) أى التراب .

ومن أسمائه ما هو وصف لخلقه مثل : ابي لبّد والمليد (كالمحسن ، من لبده أى الشعر المحيط برقبته وصدره) ، ثم العقرن (كالهزير ، من عُقرته أى لبدة رقبته) ، والخطار (المتبختر) ، واللائث (من لاث شيئاً : لاکه فى فمه ، لاته يلوك اللحم كما نراه يفعل فى الحير *) ومن هذه صيغ الليث .

الصفيحة والمائور (فى متنه اثر) والمشطب (فى نصله شطوب أى خطوط) والدائر (الذى طال عهدده بالصقتل) .

وقد يكون الوصف الواعى غير موضوعى ، ليدل على انه ابلغ فى القطع ، مثل المفتر (كالظفر : الذى فى حده فقرات ، ومنه ذو الفقار سيف الامام على المشهور) والمشمّل (كالنبر : السيف القصير يشتمل عليه بالثياب) .

ومن أسمائه ما ينبىء بمكان صنعه ، كالمشرفى (نسبة الى مكان فى مشارف الشام) واليمائى والهندي او الهندوانى . وليست هذه التسميات المكانية بالمحايدة هى الاخرى لان المراد بها جودة الصنع .

ومن أسمائه أيضا ما يحمل معنى التفزل والمباهاة برونقه مثل : الابيض والصقيل والإبريق (البراق) والقشيب (الحديث الجلاء) والرقراق (الكثير الماء) والعتيقة (وهى أصلا : البرقة تستطيل فى عرض السحاب ، ومن ثم قالوا « سلّوا عقائق كالعتائق » أى سلّوا سيوفنا تلعب كالبروق) .

ومن فرط حبهم له وعرفانهم بجميله وحسن بلائه فى نصرتهم سموه : الخليل ! وشبيهه بذلك الرداء (من الردء — كالعباء — وهو : العيون والناصر ، او من الرّدي — كالسمي — أى : الصّم) .

أما من باب التلمظ باسمه فقد سموه الهذّاذ والهذهاذ والهذاهذ (بالضم) . . والخنم (كالفطن) ، والخنوم (كالرسول) والخنم (كالنبر) والخنم (كالصق) .

ويمكن جمع بعض أسماء السيف فى أبيات من قبيل :

ولى صارم ماضى الصفيحة مهتم
قنوم هذام يختم ومختم
يمان جراز باثر النصل قرضوب
رداء تشيب ذو الكريهة مشطوب
تضيب تضاب يقضب وخليسل
وصم وصمصام يهذ صقيل

(*) فصلنا ذلك فى بحث «الروض والمروس والعراق» — كتابنا «تاريخهم من لغتهم» .
* الحير — زنة الطير — حديقة الحيوانات .

وان شئنا وضع بعض أسماء هذا البهيم البطاش في وزن ينتظمها لتأخذ مكانها في سيمفونية الصحراء عرضنا بعضها هكذا مثلا :

هو الكاسر الخَطَّار والرابض الرادي
 أبو لبد المعروف بِالصَّيَّةِ الصاد
 هو الاسد الرئبال سِيدُ عَرَنَدَسْ
 عَقْرَنُ وعفرين عَقْرَتَى عَفْرَنَسْ !
 وَعِفْرُ عِقْرُ عِفْرَسْ وَعَقْرَمَرَه
 وعفريّة العفريت ليث وقسوره
 اسامة وَرَدُّ ان تَرِيدَ حيدرُ
 وان صال قرضاب هزيرُ غَضَنَرُ
 وإن نسايم رِياض وإن تمام ضيفيم
 مُنَاصِمُ صَمَاصِمُ وَصِمُ وَصَمِصِمُ ..

ما كان العرب بطبيعة الحال يسردون أسماء الداهية والاسد والسيف على هذا المنوال ، وانما كانوا يستعملون كلا منها في عبارة تحكى موقفا متازما أو تروى خبرا مروّعا ، فيكون للكلام رهبته ووقمه المشحون بالطاقة الشعورية المؤثرة .. يختارون لكل حالة أحد هذه الاسماء الكثيرة المعبرة ، اما مجرد سردها على هذه الوتيرة فلا يؤدي الا المقدار الضئيل من الغرض الذي نريد اليه .

على أن اختلاف المعاجم وكتب اللغة في تعريف هذه الاسماء وفي استعمالها يبيّن أن الاسماء والصيغ قد كانت أكثر بكثير مما احصاه الرواة ، ما دام باب الاستعارة مفتوحا ، على مصراعيه امام الجميع . لقد كان في وسعهم وما زال في وسعنا — أن نستعمل من كل نعمتٍ إسمًا لاي شيء ، فاذا صادف استحسانا شاع وغرض نفسه على الأذواق .

ولو جمعنا كل تلك الاسماء مع أسماء الحية والجمال والحصان والغزالة وحتى الكباش والتيس .. ثم العسل والخمر والحب والبيض والخوف والغضب والحرب .. ووضعنا كلا منها في عبارة مناسبة متجربة .. لألفنا (سيمفونية الصحراء) ..

وهل الشعر الجاهلي ، بجملته ، غير ذلك ؟

وكم أسماء له من معنى الكسر . منها قيل كل شيء ، الكاسر ، ثم الغضائر (بالضم) ، من غضفت عودا : كسرته) ومنها الغضفر أيضا .. ثم العَرَنَدَسْ (كالسفرجل ، من عردسه : صرعه) .

وبعض الاسماء من معنى القطع مثل الهزير (من هزيرت شيئا : قطعته) والقرضاب (من قرضبته : قطعته ، وهو من أسماء السيف) ..

وأسامة (من سام على القوم : أغار عليهم نعمات فيهم) ..

ومن أسمائه المتنوعة : الصياد والصاد ، ثم الريبال (ويخالها اللغويون تخفيفا من الرئبال ، بالهمز. لكننا نرى العكس لان الكلمة مشتقة من الرّيزل والرّيزل أى التصيد ، ثم هيزت) .. والضيفم (العَضَّاض) ، والضرغام (الغضوب ، من ضريم — كفرح — وتضرم عليه : احتدم غضبا ، وضريم في الطعام : جدّ في اكله لا يدفع شيئا منه) ، والسيد (كالسيد ، من السيادة ، تخفيفا من السيّد — بالتشديد — كما تنطق الكلمة بالاسبانية بنفس المعنى : acid) .

ويبلغ تلذذهم بتنوع الصيغ حد الاغراق في نعمت هذا الحيوان في مثل الصمّ والصيّة والصميم (وكلها بالكسر) والصّمام (بالضم) والصمّصام (بالفتح) وهي مستعارة من أسماء السيف ، ثم تبلغ النشوة في التبطّق والتنويع أتمهاها في : العِفْر (كالعطر) والعِفْر (كالسجل) والعفريت والعفريس والعفرون (كالهزير) والعَقْرَتَى (كالعَرَضَتَى ، بسكون الضاد وفتح الباقيات) والعِفْرانَة (بكسرتين) والعِفْرِيّة (كالإطرية وهي من أسماء الداهية) والعِفْرَس (كالمصفور) والعِفْرَس (كالهزير) والعِفْرَس (كالمصفور) والعَفْرَنَس (كالسفرجل) والعَفْرَمَرَة .. نهذه أربع عشرة لفظة من مادة واحدة هي (العفر) فهل معنى هذا شيئا غير قوة حاسة الطرب والتلحين في القوم ؟

والكثير من أسماء الاسد ادل على الاعجاب والتقدير منها على الكراهية والذعر .